الباب الثامن

« آخر ما كتبه ديكنز »

« بليك هاوس »

بعد إنتهاء ديكنز من كتابة « دافيد كوبرفيلد » بدأ فى رواية أخرى نشرت تحت عنوان « بليك هاوس » يتحدث فيها عن أسرة وما يحدث لأفرادها أثناء إنتظارهم حكم القضاء فى قضيه لهم

وقد كان الغرض الأساسى من كتابة « بليك هاوس » هو التحدث عن مساوىء القضاء فى ذلك العهد وإرتباطها بحياة الأفراد .

أن قضية « جنج » ظلت تعرض فى المحاكم فى فترات مختلفة لمدة تسعين عاما، وقد اختار ديكنز شخصيات الرواية من الرجال الذين عرفهم فمثلا سكيمبول هو « ليه هنت » وقد استطاع ليه هذا عند قراءته الكتاب أن يعرف نفسه كما أن « بويثورن » كان يمثل « لاندر »

وقد لا نعد هذا النوع من الروايات ضعيفا . إذ أن جميع الروائيين المشهورين يعتمدون فى تأليفهم على تجاربهم . فقد قام أسلاف ديكنز أمثال سكوت وسموليت وفيلدنج وجولد سميث ، بل وسير والتر سكوت نفسه بكتابة رواياتهم معتمدين على الواقع ، مستخدمين أبطالها من العائلات والأصدقاء الذين عرفوهم فى حياتهم . ولكن الروائى عليه أن يستخدم

الحقيقة مضافا اليها ما يراه من تعديل ، مستعينا فى ذلك بخياله وفكره . ولقد خلق ديكنز شخصية هاربيت مارتينو إحدى كاتبات العصر فى شخصية مسز جلى . وكانت هاربيت قد كتبت خمسة وعشرين قصة تعرض فيها نواحى الاقتصاد السياسى ، ولكنها لم تستطع أن تدرك أن المقصود بمسز جلى هى نفسها . منذ ذلك الوقت بدأ ديكنز فى تصوير الحياة تصويرا دقيقا كما نرى فى رواية دوريت الصغيرة وقد استخدم الواقع الذى يقوم على أساس التجربة .

ونرى أن جميع الشخصيات فى هذا الكتاب تتأثر أو تتعلق حياتهم بالقضاء والمحاكم التى يظهرها ديكنز بمثابة محور للشر إذ لها تأثير سيء فى حياة هؤلاء الأفراد

وهذه الرواية مع أنها كانت تتطلب تركيز فكرة لدرجة كبيرة إلا أنها كانت أسهل فى تأليفها من رواية « دومى وإبنه » التى ألفها فى نهاية نوفمبر عام ١٨٥١ وقد أتم كتابتها فى أغسطس عام١٨٥٣ وأهدى الكتاب إلى رابطة الأدب والفن

وأما « ايام الشدة » فقد فكر أولا فى الموضوع ثم بدأ فى الكتابة عام ١٨٥٣ فى فصل الشتاء حين كان يستعد لتمثيلية العيد وقد أتم كتابتها فى بولون فى صيف ١٨٥٤ وأهداها الى كارليل

نجد فى « بليك هاوس » بعض الصفات التى يمتاز بها كتاب « دافيد كوبر فيلد » والقصة تحكى لنا عن طريق صاحبها . فكما أن دافيد يقص علينا تاريخ حياته ، كذلك تقوم « استر سمرسون » بذكر الحوادث التى تقع فى الرواية . وتعتبر بليك هاوس أحسن روايات ديكنز بالنسبة إلى ارتباط موضوعها والأحكام فى

التصميم والتأليف إذ أن كل حادثة فى الرواية لها قيمتها الخاصة فى التأثير على باقى الحوادث .

نجد فى رواياته الأخرى أن بعض الحوادث تقوم بذاتها وليست مرتبطة بالرواية ارتباطا تاما ، وأما فى بليك هاوس فكل الحوادث سواء أكانت مهمة أو تافهة لها تأثيرها على الموضوع ، فتجلب الحزن أو الفرح طبقا لمقتضى الحال .

جميع أفراد القصة يتأثرون من نتائج القضاء سواء أكانت بطريق مباشر أو غير مباشر ، ويزداد عدد أفراد الرواية كلما تعمقنا فى القراءة . وأخيرا حين ينطق القاضى بالحكم ، نجد أن المصاريف التى تكبدتها القضية قد استنفدت المبلغ الأصلى .

نجد فى كتب ديكنز المختلفة أن الوعظ والارشاد يتخللان تلك الروايات ، وأما فى بليك هاوس فان هذه الصفة تطغى على كل شى آخر . فنحن نشعر بمساوىء القضـــاء فى كل صفحة من صفحات الرواية وهذا بالرغم من أنها تعتبر من انجح ما كتب ديكنز . إن الكاتب لا يحاول أن يغير مجرى تفكيرنا حتى إن شخصية سكيمول أو شاربا نهلا تجعلنا ننسى ما يدور فى الرواية . كما يحدث حين تظهر مسز جامب فى « مارتن شزلويت » .

إن ديكنز يعرض لنا الناحية المؤلمة والمظلمة فى الحيـــاة ولذلك كان يتطلب منه أن يرجد فى بليك هاوس بعض العناصر التى تنسينا الهموم ولو إلى حين . .

تقوم الرواية حول ريتشارد كارستون الشاب الذى يشترك مع أداكلير

قريبة له فى ميراث تقام عليه قضية تعرف بقضية « جارنديس » أما ريتشارد فهو لضعف إرادته لا يجهد نفسه فى الحياة ، بل يتخذها ذريعة للفسق السهل ظانا أنه سيرث مبلغا كبيرا يساعده على بناء حياته . ولكن القضية بعد تغطية المصاريف لا تترك لها شيئا وأما آدافلها صديقة تدعى « إستر » تعتقد أنها فقدت والديها وتقوم بسرد حوادث القصة على القارىء .

وفى القصة يقدم لنا المؤلف السير ليستر ديدلوك الذى يعجب بزوجته الجميلة « ليدى ديدلويك » التى كانت قبل زواجها قد أحبت « كابتن رودون » وأصبحت أما لطفلة لم تكن تعتقد أنها على قيد الحياة ، كما أنها كانت تعتقد أن الكابتن قد مات غريقا ، ولكن الطفلة لم تكن غير « استر سمرسون » كما أن رودون كان يعمل ككاتب فقير الحال وتكتشف ليدى ديدلوك أنه على قيد الحياة ، كما أن المحامى العجوز تلكنجهورن يزعم أن هناك سرا فى حياة ليدى ديدلوك ، وبعد موت الكابتن رودون يستطيع المحامى أن يقف على حقائق هذا السر ويهدد ليدى ديدلوك بأنه سيفشى السر لزوجها فى تلك الليلة ولكنه يقتل ويقوم البوليس السرى « بكيت » بكشف السر للبارون وفى الوقت نفسه يقبض على خادمة ليدى ديدلوك الفرنسية والتى كانت قد ارتكبت الجريمة فتفر إزاء هذه الحوادث ليدى ديدلوك ويجدونها جثة هامدة بالقرب من مدفن حبيبها السابق . . .

إن جزءاً كبيراً من القصة يختص باخلاص استر سمرسون لجون جارنديس وكيف أنها قبلته زوجا لها ، لشعورها بالواجب نحوه ، ولتقديرها حسن معاملته لها لأنه كان يعاملها كأبنة ، وذلك بالرغم من أنها كانت تحب طبيبا شابا يدعى دوركورت . وأما سكيمبول فهو يمثل الشخص المحب الذى يدعى براءة الطفولة وعدم استطاعته الشعور بالمسؤولية حتى ينال كل ما يريده من الآخرين

وأما « المس جلبي » التي تهمل في شئون وإدارة منزلها وأطفالها لانشغالها في المشاريع والجمعيات فهي تقابل من ديكنز بكره، لأنه يؤكد لنا أن المكان الأول للسيدة هو منزلها وليس أي شيء آخر في الوجود ، وذلك لأنه كان يرى أن على الانجليز ان يعالجوا ماتفشى بين ظهرانيهم من مرض وجهل في حين أنهم كانوا لايهتمون بشيء سوى إصلاح مدنهم وقراهم.

كتب دين راماساى في ذلك الوقت إلى فورستر يقول « حقا إنها أقوى وأنجح رواية كتبها ديكنز . إن شخصية جو تعتبر شخصية ناجحة. في الرواية نجد الطبقة التي لم تمسها الثقافة ، كما أن ينفث فيه الشعور الحقيقي السامي.»

« إن استر سمرسون تكسب حب كل من يقابلها فيقع في حبها المستر جين كاتب محام فيطلب يدها، ولكنها ترفضه فيقوم يتبعها إلى حيث تذهب ناظرا إليها بعين ملؤها الشر . وأما أمه ولو أنها تظهر مرتين فقط إلا انها تبقى في ذاكرتنا حين يعلو صوتها كلما همت بهبوط الدرج . ! »

لاقى كتاب « بليك هاوس » نجاحا أكثر من دافيد كوبر فيلد . ولكن الكاتب كان يشعر كأن شيئا ينقصه رغم انه كان يعيش في سلام ووئام . ألم يكن قد حصل على كل شيء عمل وصلى من أجله، والدموع تترقرق في مقلتيه في تلك الليلة حين نالت أخته فانى فيها مدالية معهد الموسيقى ؟ الم يكن رجلا يشار اليه بالبنان، رجلا مثقفا استطاع بقوة قلبه أن ينفق على عائلة كبيرة العدد واحتفظ بعدد من الخدم والحشم . ألم يكن اسمه معروفا في قارتين على الأقل ؟ أن قضية « بليك هاوس » قد أظهرت تقدمه في حياته الأجتماعية إذ استطاع بشهرته أن يكشف سر الطبقات الارستقراطية ولكن النقاد لم يقابلوا الكتاب باستحسان وإذا دققنا البحث لوجدنا أن قليلا من روايات ديكنز لاقى استحسانا من النقاد بل أن بعضهم كانوا ينبذون المؤلفات عند ظهورها

ولكن بمضى الزمن تظهر لهم اهميتها . وقد بيعت نسخ من « بليك هاوس » بلغ عددها ضعف عدد نسخ « دافيد كوبر فيلد »

وفى صيف عام ١٨٥١ كتب « كيت د يكنز » كتابا تحت اسم « ليدى ماريا كلتوبك » وكان موضوعه « ماذا نأكل فى العشاء ؟ وقد ذكر أحد ابناء ديكنز أن الكتاب كان يحتوى على ألوان الطعـــام التى كانت تقدم فى « تانستوك هاوس » أى منزل « تشارلس ديكنز » ومن مزايا الكتاب أنه يعطينا فكرة عن الوان الطعام فى عصر الملكة فيكتوريا إذ كانت الأطعمه تقدم وتختلف بنسبة عدد الضيوف .

مذكرات أمريكية

قام ديكنز باظهار عيوب المجتمع الانجليزى فى ذلك العصر بدون رحمة أو هوادة ولم يجرؤ أحد أن يعتبر المؤلف معيبا أو مقصرا فى حق أمته . كان هذا الاختلاف بين وجهتى نظر الأمريكين والانجليز فى ذلك الوقت إذ أن ديكنز عندما قام بنقد امريكا فى كتابه « مذكرات امريكية » أوكتابه الاخير « مارتن شزلويت » غضب الامريكيون وزعموا أن المؤلف أنكر الجميل لأنهم أكرموا وفادته وكانت النتيجة إنهم قوبلوا منه بنقد مرير لطرق معيشتهم

تاريخ انجلترا للاطفال

فى ذلك الوقت أيضا أتم تشـــارلس ديكنز كتاب « تاريخ انجلترا للاطفال » وهو الكتاب الذى كانت قدظهرت بعض فصوله فى مجلة « هو يسهولد

وروز » وكان الغرض من هذا الكتاب هو إعطاء أولاده فكرة عن تاريخ انجلترا، وهو كتاريخ ماكولى ينتهى بثورة ١٦٨٨ ولكن يعتبر هذا الكتاب أسوأ ما كتب ديكنز فكان جديراً أن يدع التاريخ جانبا وأن يكتب الروايات. وقد قام فى هذا الكتاب التاريخى باضافة آرائه الشخصية فى الملوك المختلفين وأعمالهم وخصائص الأزمنة التى عاشوا فيها .

أيام الشدة

كان كتابه التالى « أيام الشدة » وهو ماظهر فى مجلته الأسبوعية تباعا إذ أن ديكنز كان يجد صعوبة فى الكتابة المحددة المساحة . كان دائما يسعى لحرية التصرف فى كتابته فيجود بفكره وتصرفه فى التأليف . يريد أن يكون طليقا حرا يكتب مايشاء فى المساحة التى تحتاج اليها فلا يتقيد بعدد الصفحات

ان أيام الشدة يعتبر كتابا هاما لجميع الذين يهتمون بدراسة الاحوال الأجتماعية فى بلد صناعى فيظهر علاقة الرئيس بالمرؤوس

تقع حوادث القصة فى بلدة كوكتون حيث تدور حول توماس « جراد جريند » أحد سكان كوكتون ـ البلدة الصناعية ـ وهو رجل مثقف يعتقد فى الحقائق والاحصائيات ولا يعتقد فى شىء آخر، ويربى أولاده لويزا وتوم على هذا المنوال، وبعدئذ تكبر لويزا فتتزوج من جوزايا بوندزنى وهو يملك مصانع للنسيج ، ويكبرها بثلاثين عاما ، فتقبل لويزا هذا الزواج لكى تساعد أخوها الذى كان يعمل عند بوندزنى لعدم اكتراث أبوها بأحوالها

تتعرف لويزا على جيمس هارتهاوس، رجل سياسى لاقلب له ولامبدأ

فيتودد اليها فتذهب الى أبيها هاربة منه وتطلب حمايتها فحينئذ يشعر بتقصيره فى تربيته لاولاده فتنفصل عن بوند زنى، وأما توم الذى كان قد سرق خزينة بوند زنى فيرسل الى خارج القطر لكى يبدأ حياة جديدة .

حينما كان ديكنز يجلس بالقرب من المدفأة ذات ليلة وجد بين الخطابات العديدة رسالة ذات خط معروف لديه ففض غلافها، فاذا بها من ماريا بيد نيل حبيبته الأولى فكتب لها يقول « لم أكن فى يوم من الأيام أحسن مما كنت عليه حين أدخلت السرور على قلبي فأصبح يخالجنى الآن شعور غريب وهو أن أطلعك على امنيتى فى الحياة وهذه الأمنية هى أن تتوقفى عن القرآة وأنت تطالعين «دافيد كوبر فيلد» وتقولين لنفسك .

« كم أحبنى هذا الشاب يوما من الأيام، وما أحسن ذاكرة ذلك الرجل الذى يذكر هذا الحب الى الآن ! » ظهرت ماريا بيد نيل فى دافيد كوبرفيلد فى شخصية دورا سنبلو»

ولكن بعد كتابة هذه الرسالة وبعد أن تقابل مع ماريا وجد أنها كانت قد اصبحت سيدة بدينة متقدمة السن وذات وجه قبيح. ان دورا سنبلو كانت تمثل صورة الفتاة التى أحبها المؤلف وأضاف الى الحقيقة خياله فبعد أن رآها وجد ان حلمه لم يكن له وجود فكانت النتيجة أن سرد تأثير هذه المقابلة فى رواية « دوريت الصغيرة » وظهرت ماريا فى شخص « فلورا » التى تضايقنا بحديثها ولكننا مع ذلك نحبها

« دوريت الصغيرة »

كان ديكنز يعيش مع عائلته فى باريس حين بدأ فى كتابة « دوريت

الصغيرة » وقد بلغت عدد النسخ التى بيعت من كل من الأعداد الأولى أربعين ألف نسخة، وقد أتفق مع المستر هاشيت أن يدفع لديكنز مبلغ أربعين جنيها شهريا لمدة عام لإعطائه حقوق ترجمة كتبه إلى اللغة الفرنسية وحين وجوده بباريس أخذ إثنان من الرسامين برسم صورة لديكنز وكانا أخين فكتب ديكنز يقول « أنى لا أستطيع التخلص من مشاغلى حينما أجلس لكى ترسم صورتى حيث يكون عقلى مشغولا « بدوريت الصغيرة » .

فى « درويت الصغيرة » يظهر المؤلف أخطاء المصالح الحكومية حيث يقوم كل فرد بالتخلى عن المسؤلية، وإسنادها إلى غيره والرواية تنقسم إلى جزئين ، الجزء الأول يدور حول حيـــاة وليم دوريت فى سجن الدين « المارشالزيا » حيث يسجن بسبب كثرة ديونه، وأما الجزء الثانى فهو يسرد لنا وقائع حياته حين تؤول اليه ثروة ضخمة فيصبح من الأثرياء ، ويسافر إلى أوربا لكى يقف على معالمها وآثارها .

تبدأ القصة فى مارسيليا حيث تقابل رتجو والياس بلاندوا الشرير الذائع الصيت و كافاليتو و نجل عائلة ميجلر وخادمتهم و بصحبتهم مس ويد والجميع يحجزون بسبب الحجر الصحى . وفى نفس الوقت يقابلهم هناك آرثر كلنام البطل الذى يريد الذهاب إلى لندن لرؤية والدته . إن منزل المستر كلنـــام كان يسوده الغموض والأسرار . ففى هذا المنزل القديم الحالك الظلام تسكن مسز كلينام، وهى سيدة لاتستطيع السير بدون عصاها، كما أنها لازمت غرفتها خمسة عشر عاما يزورها إبنها ليخبرها أنه يريد التنازل عن نصيبه فى العمل فتحل محله خادمها وكاتم أسرارها « فلينتوبش » . وقد كانت الوحيدة التى تبعث روح البهجة فى المنزل بوجودها هى « أيمى درويت » التى كانت تذهب لحياكة ما كانت تحتاج اليه المسز كلينام . يهتم آرثر بأمر الفتـاة ويتبعها إلى

أن يقف على سرها، فيعلم أنها تسكن فى سجن المارشالزيا، حيث كانت العائلة تلازم وليم دوريت الذى كانت تقوم ايمى بالانفاق عليه، وعلى باقى أفراد العائلة . يزور آرثر كلينام سجن الدين ، وهناك يصبح صديقا لوليم دوريت الذى كان فخورا بأن يلقب « بأب المارشالزيا » لقدظل المستر دوريت سجينا لمدة ٢٣ عاما وقد ولدت إبنته إيمى هناك حتى إنهم يعتبرونها إبنة المارشالزيا وكانت تراعى مصالح أخيها وإختها فانى التى كانت تقوم بالتمثيل وكانت لاتفكر فى نفسها بل دائما فى الآخرين . يقوم آرثر بمحاولة تخلصهم من السجن وحينئذ يتسنى له التعامل مع عائلة مردل بارناكل وتسنح الفرصة للمؤلف أن يقوم باظهار أخطاء عائلة بارناكل . كما يقدم لنا أيضا عائلة مردل وعائلة بلورنيس وغيرهم . يكلل مجهود آرثر بالنجاح فيستطيع أن يحصل على المعلومات التي تثبت الثروة التى تؤول إلى المستر درويت، الذى يترك السجن ويسافر إلى الخارج تصحبه عائلته فى كل مظاهر الثروة ما عدا دوريت الصغيرة التى ظلت كما هى . يزور المستر دوريت كثيرا من البلدان الأوروبية وهناك يتقابل مع عائلة مردل فتصبح فانى خطيبه ادموند سبار كلر الذى يحصل على وظيفة كبيرة عن طريق زوج ، أمه وبعد فرح بهيج يسافر العروسان إلى فلورنس لقضاء شهر العسل ، أما وليم درويت فيفقد قواه العقلية ويموت أثر حفلة كانت تقيمها المسز مردل وأما المستر ماردل فينتحر بعد إفلاس البنك الذى كان يديره . فيتأثر كثير من الناس أمثال آرثر الذى يرسل الى سجن الدين فترجع إيمى من إيطاليا وتظهر له عطفها حين يمرض وأمادوبس شريك سابق له فيعرض عليه أن يصبح شريكا له فينقذه من السجن ويتزوج آرثر من أيمى دوريت .

ومن الأهمية ان نذكر انه فى عام ١٨٥٦ تبعا للرسائل التى كان يكتبها

المؤلف لزوجته لم يكن هناك أى فكرة عن إنفصالها، فقد كان يكتب فى خطاباته « إلى عزيزتى كاترين » وكان يسرد لها كل ما كان يحدث فى المنزل مما يدل على أن العلاقات بينهما كانت حسنة إلى النهاية وأنها توترت فجأة .

طلاق ديكنز

ذهب ديكنز فى فبراير ١٨٥٧ الى جادس هل ذلك المنزل الذى كان يحلم به فى طفولته. وقد أرسل اليه هانس أندرسون مؤلف « قصص الاطفال الخرافيه » المشهورة باسمه يعبر عن إعجابه بدوريت الصغيرة فقال . ـ « واجب على أن أعجب بك من أجل هذا الكتاب وحده ، حتى ولو لم تكن قد منحت العالم تلك المؤلفات العظيمة «دافيد كوبر فيلد» «والحانوت العجيب » الخ . . عندما التقينا كنت فى انجلترا آخر مرة عندما أهديتنى كتبك وقد حصلت على ماالفت بعدها، ولكن عليك ان تهدينى نسخه من « دوريت الصغيرة » عندما نتقابل مرة ثانية ـ لتكن بركة الله وسرور معك بالقدر الذى ادخلت به السرور علينا جميعا . »

بدأ ديكنز يشعر بأن كيت لم تكن بالزوجة التى تليق برجل عظيم مثله لأنه كان قد رأى فى باريس سيدات أمثال جورج ساند وغيرها من النساء الأديبات، وأما كيت فكانت ذات معلومات محدودة، ولم تهتم بأى موضوع ما، بل كانت لاتستطيع الاشتراك فى المناقشات، فأخذ يسأل نفسه. هل كانت كيت هى الزوجة التى ينشدها رجل مثله ! . انه لاحظ نقصها حين كان يقوم برحلته فى أمريكا وقد اصطحبها الى كثير من البلدان الأوروبية ولكن كل هذه البلاد لم تترك أثرا فيها . إن كيت لم تتغير بل ظلت على حالها ؛ وربما كان السبب الحقيقى فى توتر العلاقات بين تشارلس ديكنز وزوجته هو حبه

لا ان ترنام، ممثلة قابلها فى مانشستر وكانت تقوم بالتمثيل فى إحدى مسرحيات « ويلكى كولنز » وكان ديكنز مشتركا فى التمثيل .

تم الإنفصال بين كيت وديكنز . فذهبت كيت للسكنى فى منزل منفرد بعيدا عن زوجها وأطفالها. وقد كان ابنها الوحيد الذى يسكن معها هو شارلس الذى أرسله ديكنز لكى يعيش مع أمه. وقد كتبت كيت تقول « إن شارلس العزيز لطيف ورقيق فى معاملته لقد تركت أمرى الى الله فلتكن إرادته ورغبتى فى الحياة أن أعيش عيشة راضية إن لم تكن سعيدة . إن موقفى محزن والزمن وحده كفيل بأن يحد من الألم الذى أشعر به فى قلبى.. » وقد كانت جورجينا أخت كيت تقوم بالاشراف على المنزل والاطفال كما أنها كانت تعنى بأمور ديكنز أيضا، وقد وصلت الحال أن اعتبر ديكنز كل فرد فى صف زوجته عدوا له . لقد كانت كيت تبلغ فى ذلك الوقت الثالثة والاربعين من عمرها، فى حين أن ديكنز كان يكبرها بثلاثة أعوام وكانا قد تزوجا منذ اثنتين وعشرين سنة، وقد كانت جورجينا تفسر هذا الإنفصال بأنه تم برضاء الطرفين وبناء على طلبهما وليس لسبب آخر .

ربما كان السبب فى طلاقهما يرجع إلى حب تشارلس ديكنز للمنزل وكل مايحمله للفرد من معان، يصطحب عائلته معه فى رحلاته حتى لايحرم من وجودهم معه . كان يشعر بالغبطة التى تشع منه للآخرين ، ولكنه عندما بلغ عامه السادس والأربعين تغيرت وجهة نظره ، فقد كان يكره الرجوع الى المنزل لأن كيت كانت هناك !

إن تشارلس ديكنز كان طول حياته يحب المثل العليا وكان حبه مثاليا فقد أحب مارى هوجارت حبا جنونيا كحب دانتى لبيا تريس.

كان ديكنز يطوف انحاء بريطانيا لقراءة أجزاء من كتبه وكان أحب

قصة لديه هي « انشودة العيد » . إن قراءاته كانت تجلب الدموع والمرح لآلاف من المستمعين الذين كانوا يتأثرون تأثيرا عميقا بحوادث تلك القصص . كان لديكنز مقدرة فذة بان يدفع الجمهور فى تيار جارف نحو الهدف الذى كان يرمى اليه فى كتبه. وكان دائما يحصل على أموال طائلة من تلك القراءات برغم ما كانت تتطلبه منه من مجهودات جبارة فى مماوسة القراءة المرات العديدة ، حتى تؤثر نبراته وطريقة القائه فى السامعين . قام ديكنز بمائة وخمسة وعشرين قراءة فى لندن والضواحى كما أنه ذهب الى سكوتلاندا وإيرلندا أيضا. وكانت القاعات المعدة للقراءة تغص بالجماهير حتى تضيق بهم على رحابتها . ولقد كتب ديكنز فى ذلك الوقت يقول « يظهر لى وكأنى دائما فى عربة قطار أقرأ وأنا ذاهب للنوم . لولا إنى أعمل هذا لكى أمنع عن نفسى العوز لكنت أكفيت نفسى مشقة السفر والغياب والجهد » استمر ديكنز فى قراءاته وكتب فى أول عام ١٨٥٨ يقول «من الصعب معرفة جاد سهل مرة أخرى . إننى جارى إدخال التعديلات . . . ولكنى أجد نفسى شغوفا بالمكان . » حينما ذهب ديكنز للسكنى فى جاد سهل لم تكن كاترين معه . ولكن اليس جاد سهل هو ذلك المنزل الذى كان ديكنز يحلم به وهو صغير، حينما كان يمر به فيتمنى لو يكون صاحب هذا المنزل السعيد ؟

كان ديكنز فى عام ١٨٦٠ رجلا ذا شهرة عالمية فى سن الثامنة والأربعين ومعروفا لدى كل فرد فى بريطانيا . بل كان معبود الجماهير فى العالم باجمعه. وكان فى ذلك العصر يتمنى لو يستطيع أن يمحو الماضى ، وقد أحرق جميع خطاباته التى كتبها فى حياته ..

زار ديكنز أمريكا مرة أخرى وقام هناك ببعض القراءات فى عدة أماكن وقد كان الاقبال عظيما لا يحتاج الى إعلانات لأن الناس كانت تتوق

لسماع المؤلف يقرأ ما كتبه... من كتابات جلبت لسامعيها السعادة والهناء ..

« قصة بلدين »

وأما فى رواية «قصة بلدين» فهى ثانى رواياته التاريخية» بعد قصته المشهورة « باربنى رادج » وهذه القصة قصة تاريخية عن الثورة الفرنسية تنقسم إلى ثلاثة أقسام يربط القسم الأول بالثانى تاريخ بنك تلسون ذلك البنك الكبير الذى كان له فروع فى كل من انجلترا وفرنسا وعملاء كثيرون فى البلدين . تبدأ حوادث القصة فى عام ١٧٧٥ فنجد أن المستر جارفس لورى مثلا الموظف فى بنك تلسون فى طريقه إلى دوفر، فما يكاد يصل إلى هناك، حتى يتسلم رسالة يقرأ فيها الجملة الآتيه « انتظر الآنسه فى دوفر .. لقد إعيد الى الحياة » وفى دوفر يحجز غرفة له، وأخرى لمدموازيل مانيت التى كانت قد استلمت رسالة للتوجه إلى باريس بشأن ثروة ضئيلة آلت اليها من أبيها . فيذهب الاثنان الى باريس وهناك تجد مانيت أباها الدكتور على قيد الحياة، وهو يصنع الأحذية، بعد فقده ذاكرته، فتأخذه معها الى انجلترا، حيث تعنى به فلا تلبث أن تعود إليه ذاكرته بفضل مباشرتها له فى بلده سوهو حيث كانا يقطنان . أما القسم الثانى من الكتاب فنشاهد فيه محاكمة شارلز دارناى واتهامه بأنه جاسوس فى خدمة لويس ملك فرنسا. فيقدم الدكتور مانيت وابنته للشهادة وتنتهى المحاكمة ببراءة المتهم ، وحينئذ تنشأ صداقة بين المتهم وبين الدكتور مانيت .

وفى باريس يقوم مونسنيير بأقامة حفل كبير يحضره لفيف من العلماء والفلاسفة ورجال الجيش، وآخر رجل ينصرف من الحفل هو الماركيز « سانت ايفريموند » الذى يقتل فى طريقه تحت عجلات عربته طفلا صغيرا

فلا يهتم كثيرا بالحادث، بل يتابع سيره لينتظر ابن أخيه تشارلس دارناى وقد عاد اليه من لندن . كان دارناى يكره ايفر يموند كراهيه شديدة لذلك أراد أن يتنازل عن ثروة العـــائلة ، أو يضمها تحت تصرف أبناء يحسنون المحافظة عليها، ولكن سرعان ما يحدث انشقاق فى الرأى بين الماركيز وابن أخيه دارناى وفى نفس الليلة يقتل الماركيز ويعود دارناى الى لندن حيث يحترف مهنة التدريس

أما فى الجزء الثالث فيطلب شارلز دارناى يدلوسى بعد أن يعترف لأبيها بما أكتنف حياته من غموض وأسرار. فيوافق الأب ويزوجه بابنته ، فيسافر العروسان لقضاء شهر العسل فى واريكشير، أما كارتون خطيب لوسى الأول فيؤثر فيه الخبر تأثيراً بالغا، ولكنه يظل على عهده مخلصا لها فى حبه، ويعدها بأنه على أهبة مساعدتها فى أى وقت تشاء . فى أثناء غياب العروسين فى واريكشير يحدث هجوم على الباستيل. فيضطر شارلز دارناى بالعودة الى فرنسا لينقذ تجابيل خادم الماركيز الذى كان سجينا هناك . وجابيل هذا كان قد ساعده على الهرب بعد مقتل عمه ولكن تصادفه هناك بعض متاعب فيقبض عليه ويسجن فيقوم كارتون بابدال ملابسه بملابس تشارلس فينقذه من الاعدام، دون أن يفطن أحد. وذلك للتشابه الكبير بين تشارلس دارناى وكارتون وتكون خاتمة القصة بذلك سعيدة على النحو الذى أنهاه بها تشارلس ديكنز، وعلى الأخص عندما يختمها بتلك العبارة البليغة « هذا عمل جليل يستحق التقدير والاعجاب إذا قارناه بأى عمل عملته من قبل .. إننى ذاهب الى الراحة الأبدية التى لم أشعر بها طول حياتى ! . »

يقول النقاد بأن هذه الرواية ينقصها الكثير من ميزات ديكنز نفسه. ولكنها تعتبر دراما قائمة بذاتها تمثل الأخلاق الكريمه، والتضحيات النبيلة.

وانه لم يوجد رواية مثلها تؤثر فى حياة العائلة أياكان نوعها، بقدر ماتؤثر هـــذه الرواية بالذات فى كل نفس بشرية. فعائلة الدكتور مانيت مثلا تتأثر بالثورة الفرنسية تأثيرا كبيرا.

نشر ديكنز هذه الرواية فى عام ١٨٥٩ حينما كان يجهز لكتابه الجديد (Uncommercial Traveller) وقصته الأخرى فى انتظار أحداث جسيمه يتحدث ديكنز فيها على لسان بيب الذى يصف حوادث القصة فى أسلوب سلس يغرى القارىء على متابعة القرآءة حتى النهاية

« توقعات خطيرة »

يعيش بيب بطل الرواية مع أخت تكبره بعشرين عاما، كانت قد تزوجت من حداد يدعى « جوجار جورى » يخبرنا بيب بقصة حدثت له وهو صغير اذ كان يذهب إلى مقبرة ضمت أجـــداث أطفال وعلى مقربة منها صحراء مظلمة تنتهى عند شاطىء البحر. وقد اشعلت فى جهه منها فنارة لهدايه السفن وبها يعرف البحارة الطريق، ويترامى على بعد هـذا المنظر الفريد مقصلة، ففى ذات يوم ذهب بيب لرؤية هذا المنظر فما كاد يخطو عدة خطوات حتى ظهر له رجل فى لباس رمادى اللون، وقد غلت قدماه باطواق حديديه وكانت هيأته هذه تدل على أنه سجين هارب حكم عليه بالسجن المؤبد، فما يكاد يراه الرجل حتى يمسك بتلابيبه، فيبكى الصغير ويتوسل اليه ألا يقتله ولكن الرجل الهارب يطمئن خاطره ويسأله أن يذهب الى المدينة ويجلب له طعاما وكانت تلك الليلة ليلة عيد الميلاد فيهرع الصبى الى القريه ويعود الى السجين بغذاء دسم ويقفل راجعا الى منزله.

ولا تقتصر القصة على هذا فحسب بل تشتمل على مفاجآت غريبة منها

أن يذهب بيب مرة الى حانة فى المدينة ليعود مع زوج أخته ولكنه يدهش عندما يسلمه أحد الرجال شلنا ملفوفا فى ورقتين من فئة الجنيه. ثم يصادف بيب غرائب اخرى منها أن يقوم العم بمبلشوك بتقديمه الى مس هافيشام فى روشستر، وقد كانت هذه الفتاة غريبة فى اطوارها، تتركه يلعب مع أستيلا وكانت الأخيرة تحتقره وتعتبره من فصيلة العمال. وذات يوم يرجع بيب الى منزله فيجد أخته قد ضربت بآلة حديدية وكانت هذه القطعة الحديدية تدل على أن صاحبها كان أحد الهاربين من العدالة. ثم لا يكتفى بهذا القدر، فما يكاد يمر العام الرابع من سنى تمرينه مع زوج أخته فى أعمال الحدادة حتى يخبره المستر جاجرز محامى مس هافيشام بأن أحد عملائه قد ترك له ثروة طائلة فيظن أن مس هافيشام هى التى تركت له الثروة، ولكن المحامى يخبره الا يسأله عن فاعل الخير ويعده بأن يخبره شفويا عنه.

يذهب بيب الى لندن حيث يبدأ دراسته ويقابل بعض أقرباء مس هافيشام أثناء إقامته هناك. ثم يأتيه جوجار جورى لزيارته متملقا إليه وينادية بكلمة سيدى، فيشعر بيب بالفرق الشاسع بين مركزيهما، ثم يقدم له رسالة من مس هافيشام وخلاصتها ان استيلا تنتظره بالمنزل. وعندما تراه مس هافيشام تؤكد له ضرورة حبه لأستيلا التى لم تكن تبادله حبا بحب.

ولكن مايكاد بيب يبلغ الثالثة والعشرين من عمره حتى تكون استيلا قد تزوجت من « بنتلى دارملز » ثم يتضح لبيب آخرا الأمر ان الرجل الذى ترك له الثروة هو الهارب من العدالة الذى كان قد طلب منه الغذاء ليلة عيد الميلاد وكان هذا الرجل بروفيه هو أبا استيلا وكان عدوا لسجين هارب كامبيسون. وكانت مس هافيشام تحبه، تحدث محاولة لابعاد بروفيه عن الثارة فيتشاجر بروفيه مع كمبوسيون فيغرق الثانى واما الأول فيعدم وتؤول

ثروته الى الدولة . بعد ذلك يسافر بيب الى الشرق ويعود فيتزوج أستيلا التي كانت قد اصبحت أرملة .

«صديقنا المشترك»

وأما الرواية التي تلت « توقعات خطيرة » فهي «صديقنا المشترك» وهي تنقسم الى أربعة أجزاء تحتوي على الغموض الذي يقوم المؤلف بالكشف عن نقابه. بما ان الرواية تعتبر دراسة للحياة المعاصرة مثله في الطبقة الوسطى وتعتبر أيضا عن الاحوال الاجتماعية في القرن التاسع عشر ولقد نشرت في اعداد شهرية بين اشهر مايو ١٨٦٤ ونوفمبر ١٨٦٥ . يدور موضوع الرواية حول شخصية جون هارمون الذي يرجع من منفاه حيث ارسله أب قاس كان يقوم بعمل مقاول فأثرى. وكان جون ينتظر أن يرث ثروة أبيه على شرط أن يتزوج من « دبله ولفر » ولكنه لم يكن قد عرفها بعد فيتفق مع أحد البحارة على أن يخفي شخصيته الى أن يتعرف على الفتاة التي كان يريد أبوه ان يزوجها منه، فيتآمر عليه هذا الرجل، ولكنه يغرق بعد أن يكون قد حمل في جيوبه أوراق جون هارمون فينتشل من الماء ولكنهم يعتقدون انه قتل ، فيساعده هذا الاعتقاد على تنفيذ خطته ، فيصبح سكرتيراً للمستر بوفن الذي تؤول اليه ثروة جون هارمون وهناك يتعرف على « دبلة ولفر » التي تصبح بعد أن يتبناها المستر بوفن قاصية في طباعها، فلا تلبث أن تثور دبله خصوصا حين يتظاهر المستر بوفن بالإساءة نحو جون فتتركه وتتزوج بجون هذا وبعدئذ يكشف لها عن شخصيته . وفي نفس الرواية نطالع قصة حب « يوجين ورايبرن » المحامي لليفري هكسام أبنه أحد البحارة، فيقوم براولي هيد ستون منافس له في حب ليفري ويحاول

قتله . ولكن ليفرى تنقذه فى اللحظة الأخيرة وتتزوجه . وفى الكتاب أيضا شخصيات تعطينا فكرة عن صفات الأفراد الذين عاشوا فى القرن التاسع عشر، كما يبدى المؤلف رأيه فى الثروات الضخمة التى كان يتمتع بها أفراد قلائل وكيف أن الطبقة المتوسطة الثرية التى جمعت ثروتها نتيجة للانقلاب الصناعى قد أصبحت منبوذة لديه . إن عبادة الثروة كلمة متصلة بكل السيئات التى كان يحتقرها ديكنز . . .

« ادوين درود »

قضى ديكنز آخر أيام حياته فى قراءة ما كتبه للجمهور كما أنه كان منكبا على كتابة آخر مؤلف له وهو « ادوين درود » الذى لم يتم كتابته . وكان كل ما كتبه ثلاثة وعشرين فصلا ولكن هذه الفصول أحدثت ضجة أكثر من أى كتاب آخر كتبه وذلك لأنه تركه دون الوصول الى النهاية . تدور القصة حول أدوين درود ، وروزا بفن اللذان تواعدا على الزواج وكانت روزا قد تلقت علومها فى مدرسة مس نوينكلاتن فى كلويستر هام فى بلدة روشستر حيث يقطن جون جاسبر وولى أمر ادوين وكان رجلا غريب الأطوار ، يتظاهر بما يثير فى طباعه واخلاقه امام الناس ، وكان يعطى روزا دروسا فى الموسيقى وكان يسىء معاملتها . وفى ذلك الوقت تحضر إلى كلويستر هام هيلين لاندلس وأخوها نيفيل الذى يعجب بروزا ويحتقر معاملة ادوين لها فتحدث مشادة بين الاثنين، وفى آخر زيارة لأودين فى كلوستر هام يختلى بروزا ويطلعها على أن زواجها لن يكون سعيدا فيفسخا خطبتهما وفى نفس الليلة يختفى أدوين بطريقة تثير الشك فتحوم الشبهات حول نيفيل ، لما حدث بينهما من شجار فيقبض عليه ثم يطلق سراحه لعدم توفر الأدلة ضده، فيقوم جاسبر

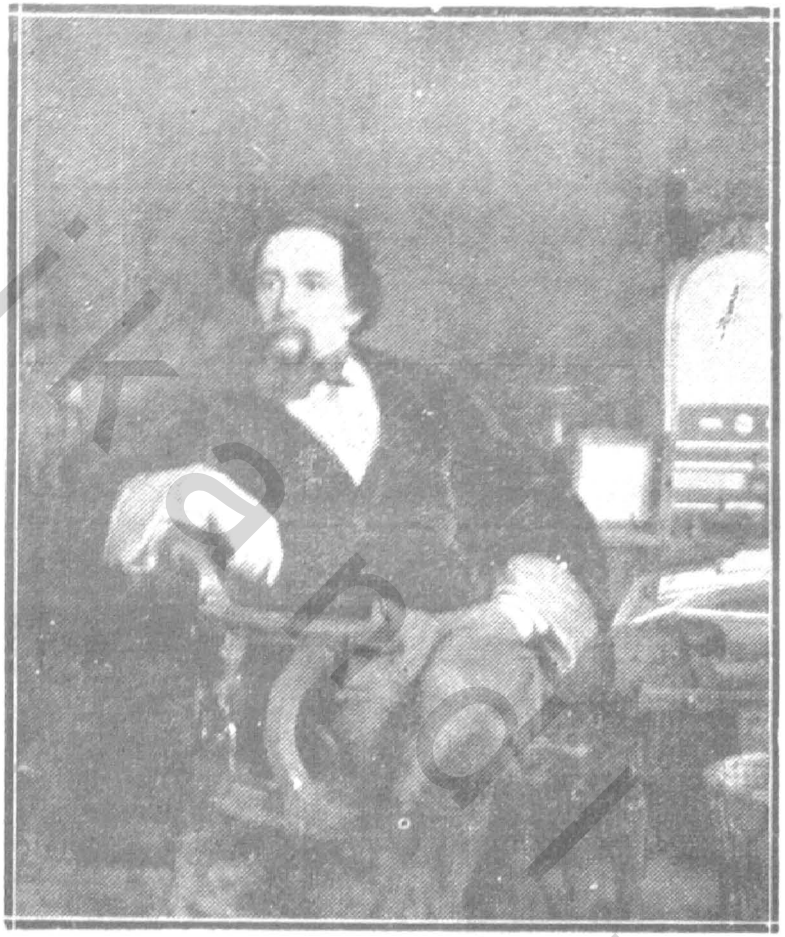

ديكنز فى عامه الثامن والاربعين

obeikan.com

obeikandl.com

باضطهاد نيفيل فيتبع روزا التى تطلب المعونة من ولى أمرها فى لندن .

لقد كان ديكنز يعمل فى كتابه ادوين وورود طول اليوم، وفى وقت العشاء لاحظت جورجينا أن على وجهه إرتسمت إمارات الأعياء والمرض وبعد دقائق كان فى غيوبة دامت إلى أن فاه بالنفس الأخير .

كان ديكنز يريد أن يدفن بالقرب من جاد سهل وكان قد أوصى أيضا أن يكون تشييع الجنازة غاية فى البساطة، ولكن جريدة التيمس فى مقال لها نادت بضرورة دفنه فى دير وستمنستر، فعلى الأمة أن تنفذ هذه الرغبة ولكنهم احترموا وصيته الثانية فكان جنـــازه خاليا من مظاهر العظمة . وقبل أن يوارى التراب سمحوا للجمهور رؤيته للمرة الأخيرة لمدة يومين. وقد كانت الجماهير تبكيه وقد غاص وستمنستر بعد دهم الهائل وحتى هوتون صديق طفولته دخل وستمنستر يحمل شمعة لكى ينظر إلى جثمان ديكنز فى تابوته البسيط.

مات المصلح العظيم الذى قضى حياته يحارب الجهل والفقر والمرض وكل مساوىء المجتمع فى عصره . وإذا سألنا أنفسنا من أى شىء يتكون كتاب المجد ؟ ألسنا نجد أن صفحاته صنعت من جلد الانسان، وحروفه طبعت بالدم البشرى، وأنواره هى دموع وقلوب منكسرة ؟ نعم هكذا استطاع ديكنز أن يكتب لنفسه المجد بكده واجتهاده وحبة للانسان الذى جعله يسعى نحو محو الأخطاء حتى تنتشر السعاده والرفاهيه .

إن الشعب الانجليزى ليمجد ديكنز اليوم لأنه يتمتع بحرية لم يحلم بها الناس فى القرن التاسع عشر ...